النشاط الثقافي في الوطن العربي

من مراسلي «الآداب»

ج.ع.م.

رسالة القاهرة من سامي خشبة

قصيدة نزار قباني

في لحظات الخطر التي تتعرض لها مسيرة الثورة بالهزيمة او يفقد قائد النضال وسط المعركة ، قد تتعرض عقائد الثورة الاساسية للتشكيك والتحقير من جانب اعدائها وأصدقائها المزيفين على السواء. ان مدائح اصدقائنا تطربنا ، وتشجيعهم يشد من ازرنا بغير جدال ، ونحن في حاجة الى معونتهم دائما ، ولكن تقدمنا متوقف بالدرجة الاولى على وضوح رؤيتنا وعلى تفرقتنا الحاسمة بين الاصدقاء الحقيقيين وبين الاعداء الحقيقيين وبين الاصدقاء المزيفين والاعداء المزيفين ايضا .

وفي غمرة الحزن الذي جلل قلوبنا على فقد القائد في خضم المعركة ، وفي غمرة الحماس العاطفي الذي يريد ان يؤكد الاصرار على الاستمرار في طريق قد تتسلل كلمات التشكيك والتحقير متسربلة بنفس غلالة الحزن والحماس الصفيقة التي ينبغي الا تخدعنا ، وهي بالفعل لا تخدع احدا . وربما كانت مراسم «الحزن» التقليدية مانعا لنا من التصدي لمثل هذه المحاولات . ولكن حزن الثوريين حزن ثوري ايضا وهذا هو ما اثبتته جماهير شعبنا . انهم اذ يحزنون على فقد قائدهم يعلنون عزمهم على التقدم في طريقه ، ويعلنون ان مضاعفة «عملهم» هو السبيل الوحيد لتعويض فقده . ولقد كان عملهم دائما تحت قيادته نضالا ضد محاولات تحقير الشعب وازدراء جهوده واخلاصه لقضيته وتضليله بهدف استمرار استعباده واستغلاله . وربما كانت مواجهتنا لمثل تلك المحاولات جزءا من ذلك العمل النضالي الذي يعد جزءا من حزننا على القائد الفقيد وسبيلا لتعويضه في نفس الوقت.

وقد كانت قصيدة الشاعر نزار قباني بعنوان «جمال عبد الناصر» مثالا نموذجيا لحملات التشكيك في مبادىء جمال عبد الناصر نفسه وفكره وتحقير الشعب العربي الذي آمن به وسار وراءه وتشويه الحقيقة التي كانت الملايين العربية ترسمها في ارجاء الوطن الكبير.

لقد نشرت قصيدة نزار قباني في مصر ، وسوف اسمح لنفسي بأن انقل الى قراء «الآداب» هنا مقالا لكاتب هذه السطور نشر في جريدة «المساء» القاهرية (الخميس ، ١٥ اكتوبر ، ١٩٧٠) ، ليس تعليقا على قصيدة نزار ، فهي في حد ذاتها لا تستحق التعليق، وانما تعليقا على ذلك الخطر : خطر التشكيك في عقائد الثورة العربية التحررية التي قادها جمال عبد الناصر والتي ما زالت تسترشد وسوف تظل تسترشد بأفكاره ومبادئه حتى تحقق الاهداف التي رسمها لها بنفسه : وحدة الوطن العربي وتحريره من كل اشكال القهر والتخلف واطلاق خطواته على طريق التقدم الانساني في كل مجالاته. وقد نشر المقال بعنوان «العروبة ، بين الاعداء والاصدقاء المزيفين».

●

«حينما قاد جمال عبد الناصر ثورته في مصر ضد الاستعمار والملكية والاقطاع الزراعي والاستغلال الرأسمالي ، كان يقود ثورة وطنية مصرية او الحلقة الاخيرة من الثورة الوطنية في مصر التي حققت الاستقلال وحررت وجودنا الوطني من معوقاته السياسية والاقتصادية لكي تبدأ طريق التقدم الطويل . ولكن الثورة الوطنية المصرية كانت بحكم التاريخ وبصورة موضوعية جزءا لا ينفصل عن الثورة الوطنية العربية ضد الاستعمار القديم والجديد ، وضد انظمة الحكم العميلة والطبقات المتواطئة مع الاستعمار والمستفيدة من وضعها كسماسرة لتوزيع منتجاته في اقطارها وضد الاحزاب السياسية الطامحة الى مشاركة الاستعمار تعبيرا عن الطبقات العميلة في حكم بلادها في ظل السيطرة الاستعمارية والتخلف الاقتصادي والسياسي والثقافي .

كانت ثورة عبد الناصر جزءا موضوعيا من الثورة الوطنية العربية في العراق وسوريا وفي السودان وليبيا وفي المغرب وتونس والجزائر واليمن . وكان جوهر الوعي السياسي في ثورة عبد الناصر انها حولت الارتباط الموضوعي بين اجنحة الثورة العربية الوطنية الى ارتباط عملي وواع . كان عبد الناصر يقول ان تحرر الجزائر من السيطرة الاستعمارية . ان تحرر العراق او اليمن انما هو تدعيم لحرية مصر. وان تحرر مصر او السودان انما هو دعم لثورة التحرر الوطني في كل بلد عربي اخر . ولذلك لم تتردد ثورة عبد الناصر في اعلان اكتشافها لوحدة الثورة الوطنية على مستوى الوطن العربي كله . ولم تتردد في اعلان اكتشافها لخصوم هذه الثورة : الاستعمار القديم والجديد والطبقات والانظمة السياسية المتواطئة معهما والمستفيدة منهما . ولم تتردد في تقديم الدعم العملي لكل اجنحة الثورة الوطنية العربية في كل قطر عربي ولم تتردد في اعلان موقفها من الاعداء والاصدقاء ولم تتردد في اعلان تحديدها لاولويات الصداقة والعداوة. فكل ما يؤدي الى تدعيم الثورة الوطنية ضد العدو الاول وهو الاستعمار باشكاله المختلفة لا بد من الاستفادة منه الى اقصى طاقاته، وكل ما يؤدي الى اضعاف النضال الوطني ضد هذا العدو لا بد من بتره دون رحمة .

كان الموقف النضالي العملي اذن هو ما امد عروبة الثورة الوطنية المصرية بأساس ارتباطها المادي بالثورة الوطنية العربية الشاملة. وكان الترابط النضالي بين اجنحة الثورة الوطنية العربية في ساحات النضال الفعلي هو الاساس المادي لتحقيق مفهوم العروبة ونقله من مستوى الشاعر الى مستوى المصالح والايمان ولايقاظ القومية العربية ذات المحتوى الانساني والوطني والتقدمي . لم تكن العروبة شعارا ولم تحفظ فكرة القومية العربية داخل معلبات الخطب المنبرية والقصائد الحماسية ، ولم توضع شروط طوباوية عن ضرورة وحدة العرب ايا كان موقفهم السياسي او نوعية مواقفهم من الاستعمار ولم تتجاهل ثورة عبد الناصر الوطنية كل المعوقات التي تمنع تعريف الثورة الوطنية وتحويلها من اجنحة اقليمية منفصلة الى ثورة قومية شاملة.

ولذلك فحينما يأتي شاعر عربي «الجنسية» ليرثي جمال عبد الناصر بسبب العروبة دون ان يحاول ان يستفيد شيئا من عبدالناصر نفسه ولا من قدرته على التمييز بين القوى الثورية العربية وبين العملاء العرب المعادين للثورة العربية ذاتها ، فان هذا الشاعر في الحقيقة ، وفي حالة التسليم بحسن نواياه ، لا يفعل شيئا اكثر من

ان يذرف دمعة غبية يبكي بها شيئا اخر غير المعنى الذي جسده عبد الناصر للثورة العربية . ان نزار قباني في قصيدته «جمال عبد الناصر» لا يرثي جمالا ولا يكشف اعداء جمال كما قد يتوهم البعض ، وانما هو يرثي جمالا بسبب العروبة التي آمن بها جمال واستشهد في معركة من معاركها الكثيرة التي خاضها . ان نزار يدعم في قصيدته كل ما عاش جمال من اجل ان يهدمه ، وهو يشوه كل ما قضى جمال عبد الناصر سنوات حياته وثورته من اجل ان يجلو قسماته ويضعها واضحة دون لبس امام عيون شعبه وعيون العالم .

حينما يقول نزار قباني :

سقيناك سم العروبة حتى شبعت

أريناك غدر العروبة حتى كفرت
لماذا ظهرت بأرض النفاق ، لماذا ظهرت ؟

حينما يقول نزار قباني هذا الكلام فانه يتحدث عن عروبة وهمية غير تلك العروبة الثورية الوطنية التي كان جمال عبد الناصر يعرفها ويجلو وجهها ويخاطبها ويجمع صفوفها في ساحات النضال . ليست هناك عروبة واحدة مطلقة مجردة يمكن ان تكون سامة او غير سامة او غادرة او منافقة . هناك عشرات الملايين من ابناء الشعب العربي المعادي للاستعمار والصهيونية وللتخلف وللارهاب وللانتهازية . وهذه الملايين الوطنية ، هي العروبة ، لان العروبة وجود وطني تخلق ويتخلق من خلال النضال ضد الاستعمار والتخلف والعنصرية والارهاب والانتهازية . وهذه الملايين العربية سارت وراء جمال دون تردد منذ ان سمعت صوته لاول مرة عام ١٩٥٣ وهو يتحدث عن وحدة النضال العربي ضد الاستعمار واسرائيل وضد الفقر والاستغلال والتخلف الاقتصادي والثقافي والروحي . ظلت هذه الملايين تسير وراء جمال عبد الناصر في معاركه ومعاركها الكثيرة ، ضد احتكار السلاح وضد مراكز السيطرة الاقتصادية الاستعمارية في اقطار وطننا كقناة السويس والبترول وضد عدوان ١٩٥٦ وضد النزول الامريكي البريطاني في لبنان والاردن عام ١٩٥٨ وضد اعداء الوحدة العربية وضد حلف بغداد وضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر وضد الانفصاليين وضد اعداء ثورة اليمن ، وفي اثناء هذا كله ضد الصهيونية واسرائيل ومن يدعمونها بالسلاح والمال والخبرة العلمية .

عشرات الملايين من ابناء الشعب العربي في كل اقطارهم ساروا وراء جمال عبد الناصر في كل هذه المعارك لكي يمنحوا لفكر عبد الناصر الثوري كيانه المادي ، لكي يجعلوا للعروبة الوطنية التقدمية وجودا واقعيا حقيقيا ، ولكي يجعلوا القومية العربية مجسدة حقا في ملايين البشر المؤمنين بانتمائهم اليها قبل ان يتوحدوا سياسيا في دولة واحدة .

اما السموم والقدو والنفاق فقد صدرت عن الطبقات المتواطئة مع الاستعمار والمعادية اصلا لفكرة العروبة وللقومية العربية ، لانها الطبقات المعادية اصلا للثورة الوطنية العربية التي قادها جمال عبد الناصر حينما كان يقود جماهيرها الثورية .

وحينما يقول نزار قباني : :

انادي عليك .. ابا خالد
واعرف اني انادي بواد
وأعرف انك لن تستجيب
وان الخوارق ليست تعاد

فان الشاعر العربي ـ الذي تعود ان يكون لسان حال للانفصاليين احيانا ، وللشامتين في هزيمتنا احيانا اخرى ولمدعي الحكمة من الثوريين الجدد احيانا ثالثة ـ يتفق اتفاقا كاملا مع وجهة النظر الاستعمارية التي قالت ان الفراغ الذي احدثه موت عبد الناصر لن يملأه احد ، ولم يكونوا يفكرون كعادتهم في جماهير الشعب العربي العاملة التي ملأت الفراغ وحولت المعجزة الى قانون مستمر . ان المعجزة او الخارقة التي حققتها ثورة عبد الناصر هي توحيد هدف النضال الثوري لكل جماهير الثورة العربية ، هدف القضاء على الاستعمار القديم والجديد ثم القضاء على عملائه والتصرف في ساحة النضال بذكاء ثوري لا يسمح بتبديد اي طاقة تخدم اهدافه العاجلة او البعيدة المدى . وبذلك تجسدت معجزة ثورة عبد الناصر يوم جنازته نفسها . كانت الجماهير تهتف وهي تبكي «هنكمل المشوار». ان الخوارق ليست تعاد حقا . ولكن الفكر المتخلف الذي تمثله قصيدة نزار الرديئة لا يعرف شيئا عن الثورة ولا عن جماهيرها . فصاراه ان يتوهم في الانقلابات صورة الثورة . وهو لا يرى في الجماهير سوى حشود من الغوغاء . ولكن هذه الجماهير الثورية التي تعلمت من قائدها ان لا بديل للنضال حتى النصر سوى الاستسلام حتى الفناء كانت قد قررت ان تحيل الخارقة الى قانون والاستثناء الى قاعدة ، فملأت بنفسها الفراغ الذي خلفه الانتهاء المادي لحياة زعيمها .

وحينما يقول نزار قباني :
فنحن شعوب من الجاهلية
ونحن التقلب ، نحن التذبذب ، والباطنية
نبايع اربابنا في الصباح
ونأكلهم حين تأتي العشية

حينما يقول نزار قباني هذا الكلام فانه يكشف عجزه عن فهم المعنى الذي ابرزه عبد الناصر بكلمة «الشعب العربي» ذاتها . ان التذبذب والتقلب والباطنية لم تكن هي صفات الشعب العربي السوري مثلا يوم الانفصال المشؤوم حين خرج هذا الشعب في حلب ودمشق ودرعا واللاذقية وغيرها من المدن السورية يقاوم دبابات الانفصال . ولم تكن هذه هي صفات الشعب العربي في طرابلس ليبيا حينما رأى عبد الناصر على ارض مدينته او الشعب العربي في خرطوم السودان حينما واجه اعداء الثورة الوطنية العربية قبيل مؤتمر الخرطوم او الشعب العربي في لبنان الذي ضرب بالسلاح محاولة طعن الوحدة في ظهرها وطعن الثورة الوطنية في العراق عشية انفجارها . التذبذب والتقلب والباطنية هي صفات الطبقات المستغلة المتواطئة بأحزابها وحكوماتها مع الاستعمار ، والتي اكرهتها قوى الشعب العربي الثورية على مداراة تواطئها وعمالتها للاستعمار والتي كانت تتحين الفرص للانقضاض على الثورة العربية وعلى جماهيرها التي قادها عبد الناصر.

نزار قباني يطلق صفات طبقة معينة على الشعب العربي كله حتى يضيع «الشامي في المغربي» كما يقول المثل العامي ولا يعود احد يعرف من الذي تخلى عن الثورة الوطنية العربية التي قادها عبد الناصر ومن الذي كانت هذه الثورة تجسد حياته واحلامه ونضاله جميعا .

.... لقد كانت فلسطين والنضال الثوري العربي ضد الصهيونية هما البؤرة الاخيرة الدائمة التي تلاقت عندها كل جماهير الثورة الوطنية العربية وتبلورت فيها كل اهدافها وتحددت مواقع قواها وقوى اعدائها . وبهذا المعنى ولظروف تاريخية عديدة فان النضال ضد الاستعمار الاستيطاني الاجلائي العنصري في فلسطين والذي يهدد بالامتداد الى الوطن العربي شرقا وغربا ويدعمه الاستعمار العالمي ، هذا النضال هو المعركة التي تنصهر في نيرانها الوحدة العربية والوجود القومي العربي على مستوى مادي ومحسوس .... وأعداؤنا لا يريدون فرصة افضل من تفكك وحدة قوى الثورة العربية ووحدة الثوار الوطنيين العرب وارتيابهم بعضهم في البعض وفقدانهم لوحدة الارادة والقدرة على توحيد العمل الثوري الوطني على المستويات السياسية والعسكرية .

ان حملات التشكيك والتفتيت التي يشنها الاعداء والاصدقاء

المزيفون قد تجد تربة صالحة للنمو في النزعات الاقليمية التي تخفي وراء تظاهرها بالتمسك بمصالح المصريين وحدهم مثلا رغبة في التحلل من التزامات المعركة القومية التي يتوقف عليها مصير الشعب العربي في مصر ذاتها بقدر ما يتوقف عليها مصير الشعب العربي في كل اقطاره وعلى كل جبهات وجوده . وهذه النزعات الاقليمية التي قد تتخفى وراء شعارات وطنية او اجتماعية او دينية برافة لا يغذيها سوى تضخم مصالح الطبقات المستغلة من ناحية وحرمان الجماهير من مصادر الوعي السياسي الوطني والقومي الذي لا يدعمه سوى تحقيق المصالح الحقيقية لهذه الجماهير نفسها ...

●

في ليلة واحدة استعادت جماهير الشعب العربي في كل اقطاره توازنها بعد فقد جمال عبد الناصر . ولكن ليس من مصلحة الاعداء والاصدقاء المزيفين ان يستمر احرار الشعب العربي على مواصلة ثورته الوطنية القومية والاجتماعية والثقافية . وليس امام هؤلاء من سلاح اولي سوى التشكيك في المعنى الثوري «للعروبة» وسوى التشكيك في قدرة القوى الثورية العربية على توحيد صفوفها وعلى حمل هذه القوى على الارتياب في قيمة وحدتها ، اي في قيمة عروبة الثورة الوطنية مقابل التمسك باقليمية هذه الثورة التي لن تكون ثورة بعد اذا تخلت عن بعدها القومي وانحصرت داخل نطاق الاقليمية الضيق ، واذا فقدت الارتباط بين الثورة التحررية الوطنية والثورة الاجتماعية التي تحقق للعروبة معناها الرئيسي : فالعروبة تصنع في نضال الجماهير الثورية من اجل الحرية والعدالة والتقدم والرخاء والسلم . وهذا هو المعنى الذي عاش من اجله عبد الناصر، واستشهد من اجله ايضا .

القاهرة — سامي خشبة

العراق

الرؤيا الواعية في مسرحية « الخرابة »

بقلم الدكتور جميل نصيف التكريتي

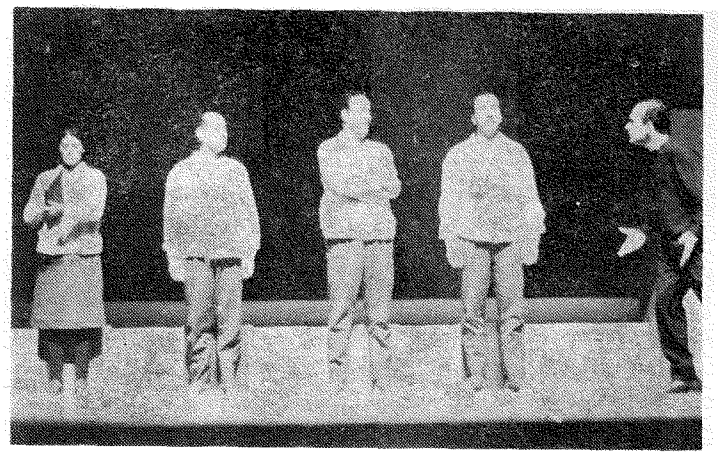

الواحد مع الاول (كريم عواد) والثاني (فاروق فياض) والثالث (يوسف العاني) والرابع (ناهدة الرماح)

●

« احنة جينه د نشوف مسرحية ونضحك ونتونس .. لو جينه نسمع خطبة جافة ونصايح نقزز كانما احنة ناس جهلة ،متخلفين ، او متهمين .. تصوروا متهمين ! » (1)

هذا ما تقوله « الواحدة » في بداية المسرحية ، ولعل هذا ما يردده جهرا او سرا امتداداتها داخل المسرح اوخارجه . اما بالنسبة لغالبية جمهور المسرحية ، فلم تر فيها ، أي المسرحية . اتهاما بل كشفا لا برحم عن الحقيقة .. حقيقة عالمنا المعاصر ، حيث الصراع يتعاظم باستمرار بين قوى الخير والنور والتقدم والسلام من ناحية، وبين قوى الاستغلال والقهر والظلام من الناحية الاخرى . وعبر هذا الصراع تتكشف نظريان للكون ؟ وموقفان من الحياة ، واسلوبان : احدهما يعتمد الصدق والصراحة والحقيقة والخير للجميع ، اما الاخر فيتوسل بالكذب والمراوغة والزيف ويريد الخير له ، لنفسه فقط والشقاء والالام للاخرين . الاول يجسد كل ما في حياتنا الانسانية من خير منذ ان كانت على وجه الارض حياة ، اما الاخر فيجسد كل ما لافته هذه الانسانية المعذبة من شرور ومظالم مسؤولية عن كل ما سكب من دموع واريق من دماء .

مسرحية « الخرابة » مسرحية هادفة منحازة في كل كلمة من كلماتها ، في كل عبارة من عباراتها ، في كل حركة تبدر من شخصياتها. ولعلها من هذه الناحية لا تضيف جديدا الى مجموعة يوسف العاني المسرحية طيلة العقدين الماضيين ، ومع ذلك فهذه المسرحية جديدة لا على المسرح العراقي فحسب بل وعلى مسرح العاني نفسه ، في صفاء ودقة الرؤية وطبيعة وعيها لاهم قضايا عصرنا ، وفي شمولية نجاحها في ابراز هوية الصراعات الرئيسة التي تنتظم عالمنا من اقصاه الى اقصاه ، وفي الكشف عن بواعثها ومنطلقاتها وفي ابراز معالم الاستقطاب في الحياة وتجسيد ذلك في موقفين متمايزين متعارضين ومتناقضين .. لكل منهما هويته ومرتكزاته .. اخلاقيته وسلوكيته .

ومنذ اللحظات الاولى تضعنا المسرحية وجها لوجه امام هذه الظاهرة الاستقطابية في الحياة .. ظاهرة مرة وقاسية ولكنها حقيقة يجب تشخيصها وادراكها ليسهل علينا بالتالي تحديد موقفنا منها ولتصبح عملية تحديد هذا الموقف مسألة ممكنة ومثمرة :

الاول والثاني اسمع

الاول والثاني شنو ؟ « ماذا ؟ »

الاول الجاي « الشاي »

الثاني شبيه ؟ « ماذا به ؟ »

الاول صار ساعتين ديفور ،وبعد ، الماي ، ماي مثل ما هو ... حفنة ونص حطيت جاي والماي بعده ماي والجاي بعده جاي

وستبقى هذه العزلة بين الماي – الماء – والجاي – الشاي – رمزا للتمايز والاستقطاب في الحياة .. سيبقى النور يصارع الظلام حتى يصرعه وسيبقى الخير يصارع الشر حتى يقضي عليه . وسيبقى هذا الصراع قائما ما بقيت هناك قوانين تسن لاضفاء الشرعية على نمتع البعض بثمار جهود البعض الاخر .. ما بقي هناك مستغل (بكسر الغين) ومستغل (بفتحها) عاطل متخوم وكادح جوعان . وسيبقى«الجاي جاي والماي ماي » ما بقي « الواحد » و« الواحدة » وامتداداتهما على كذبهم ودسهم وسعيهم لاستغلال الاخرين وزرع الفتنة بينهم لتسهل سيطرتهم عليهم والتحكم في رقابهم . سيبقى هذا التمايز قائما ما اصر « الواحد » و« الواحدة » وامثالهما على الكذب والتعدي والحرشة حتى تتمكن قوى الخير من اقتلاع الشر من جذوره ورميه مع اصحابه في مزبلة التاريخ .

الواحد : اكبر نقطة ضعف . واحسن فرصة الى اخش للخرابة

---

(1) « الخرابة » ص ٩ ، تأليف يوسف العاني ، منشورات الطريق الجديد . بغداد ١٩٧٠.

الواحدة (زينب) مع الواحـــد (روميـو يوسف)

●

نتفرج عليهم ونسمع منهم ، واذا مـا يحجون نحجيهم ونورطهم ..ونشوف بعديـن ياهو احسن .. خرابتهم لو احنة اللي همه يكولون علينا .. احنا الخرابة .. بس خلنتركهم يتعاركـون بعد . . حتى مهمتنا تصير كلش سهلـة (ينظر الى الجهـة التي كانت فيها الواحدة) .بس وين المدموزيل . مدموزيل دتتفرجين ؟

الواحدة : دا أتفرج .. بس ما مرتاحة .. اريدهم يتعاركـون اكثر .. يختلفون اكثر ، حاول تخليهم يتقاتلون بوحشية .. كوللهمهاي بطولـة ، هذي امجاد وبعدين .. اريدك تبهذلهم واحد واحد .

(الخرابة . ص ١٧)

وحيثما تكون الحياة في اي زاويـة من زوايا كوكبنا الجميل ، يكون هناك عالمان من : الصدق والكذب . من الخير والشر ، من الحقيقـة والزيف ، من النور والظلمة ، فالصدق والخير والحقيقة اخلاقيـة حياتية تترجم الانتماء الاجتماعي لحملتها ، كمـا ان الكـــذب والشر والزيف هي الاخرى كذلك اخلاقية تحدد بدورهـا الانتماء الاجتمـاعـي لحملتها . فلا صدق بلا حياة يكتسب منهـا محتواه الاجتماعي وكذلـك قل مـع اي صفـة من الصفات الاخرى الايجابي منها والسلبي .

هناك في القمر « ماكـو صدك وجذب .. حياة ماكو » الحياة على الارض .. ومعها الخير والشر .. معها « فنابل تمسح مدن بكاملها »هذا من ناحيـة غيـر انه من الناحية الاخرى هناك « مي غزير ينعش الكاع وتخضر السنابل » عالمان احدهما يصنع الظلم والاخر يحاول ، رغم الظلم الذي يتعرض لـه ، ان يصنـع الحياة والخير . هناك « حس طبـل ومزيقـة وانين د يتزوجون » غير ان هناك « طفل يبجي ضيّع امـه ، خبصة والآلاف د يعبرون النهر والجسر مهدم والنار ناكل بيوتهم »ووراء هذا الشر « اشكال غريبة مثل الغربان بدلت الابيض اسود .. سحكت الورد وكعدت بنص بساتين البرتقال والزيتون » و« البرتقال صار حصو ... والزيتون انكلب نبدور » الا ان قوى الخير حملة راية الحقيقة في هذا العالم لـم تستسلم ، تحولت الى « وجـوه بس عيـون .. روس ملفوفـة بيشامع حمر .. بعشون علعوسج بنكلب العوسج حنطة .دمهم يسيـل عالصخر .. يتفجر بمكانه نبوع ماي » . على هذا المنوال تسير المسرحيـة وتنمو فتقدم شكـلا جديدا من اشكال التعارض في الحيـاة في كل مشهـد جديد وفي كل موقف وفي كل لوحـة .

الثلاثة (الاول والثاني والثالث) رموز للحقيقة الانسانية فـي الحياة ، وحملة رايتهـا يجسدون لنـا كل قوى الخير ماضيا وحاضرا، يتوقون للنور ، يسعـون للسلام يتمنـون الخيـر لانفسهم وللاخرين، يحلمون بالماء والخضرة ، بالبرتقال والزيتـون . الثلاثـــة يتكاتفون ويهمهمون ثم يقفـون صفا واحدا متحدين سكان الجانب الاخر من العالم المتمثـل بـ « الواحد » و« الواحدة » ..

الثلاثة : انتو الكاعدين وره الحايط الرابع المشيول . هذا الواحد اللي يريد يجي ، خلي يجي لا يظل يتفرج متل الحرامي .. يجي بس بشرط واحد : جذب ما يجذب ، حرشةما يتحرش .. نعدي ما يسوي .. وبيه خير ويسأل .. احنه منتظرين !

غير ان الواحد لا يوافق على ذلك ، فهـو لا يستطيع ان يتصور نفسه بلا كذب ، بلا حرشة بلا نعدي . واذا ما استشعر خطرا فديحول بينه وبيـن مزاولـة امتيازاته العزيزة عليه هـذه استفاث واستنجد.. استنفر قوى الظلام من امثاله : « سوولي جـارة ،آنـي منورط » . بالضبط كمـا استشعرت حكومة ترينيداد العميلة مؤخرا لهيب غضب الشعب المسحوق فاستنجدت بقوى الظلام المتمثلة باساطيل امريكـا وانجلترا لسحق قوى الثورة .. لسحق تطلعات شعب ترينيداد للنـور والحيـاة الكريمـة ..

الصدق والكذب ، العدل والظلم ، الخير والشر كلمـات هائمـة وضعت للدلالة على معـان تبقى مجردة ما لـم تترجم الى واقع ملموس .. الى عمل محدد .. وخلال ترجمتها الى هذا الواقع غالبا ما ينقلب الابيض اسود والنهار ليـلا ويجعل من الفضيلة رذيلة ومن البطولـة خيانـة ومن الشهامة نذالـة .

وعندمـا نسعى لتسمية الابيضابيض والاسود اسود ..وان يجرأ البعض على تسميـة الشر باسمه الكريه اصطدم حتمـا بارادة من نوع اخر ، ارادة تسعى جاهدة لتزييف التاريخ وقلب الحقائق . فالفاتـح يسمى نفسه محـررا والغازي منقذا والمستغل شريكا .

في كل مجتمع طبقي هناك حقيقتان ، ولكـل مصطلـح معنيان ، وللعملـة وجهان وللسلاح حدان .. فالسجون وجدت ظاهرا للمجرمين واللصوص غير انهـا غالبا مـا تضم حمله لواء الحقيقة بين جدرانهـا الرهيبة في كل مجتمع طبقي ، ظالم ومظلوم ، حاكم ومحكوم ، مستـغل ومستغل مضطهد ومضطهد . والا لزالت الصفة الطبقية عنه . والقول بضرورة التمايز الطبقي بحد ذاته انحياز الى جانب الظلم ضد المظلوم، الحاكم ضد المحكوم ، والمتخوم ضد الجائع ، العاطل ضد الكادح. فخير الاول شر للثاني وسعادته على حساب شقائه وصحته على حساب مرضـه وشبعه على حساب جوعه .

لقد كانت « الخرابة » جديدة تمامـا على جمهور المسرح العراقي، فكـان طبيعيـا ان تثير ارتباكا وحيرة ، ذلك لانه اعتاد على ان يشاهـد مسرحيات تتكون من شخصيات محددة المعالم لها ارتباطاتها الاجتماعيـة واطرها التاريخية المحددة ايضا تجسد له حدثا موحـــدا متناميا .. شخصيـات تجد نفسهـا في موقف .. وضعية تتغلب عليها وتتخطاهاالى وضعيـة اخرى وثالثة ورابعـة تعمل كلهـا على الكشف عن هوية هذه الشخصية او الشخصيات ، ومن مجرى هذا التتابع السببي الوضعيات يتكامل نسيج الحبكـة .. ينتقل بنا المؤلف من ازمة الى ازمة حتـى تبلـغ المسرحيـة بنا ذروتها لتنحل حبكتهـا (عقدتها) وليعاد توزيـع القوى وليتم اعادة النظر بكـل القيم التي تعرفنا عليها خلال الوضعيات والمواقف المبكـرة وليتم التحول النهائي من النقيض الى النقيض كمـا يقول ارسطو . لقـد عودت المسرحية التقليدية المشاهد العراقي علىكل هذا بينمـا لـم تلزم مسرحيـة « الخرابة » نفسهـا بشيء منه ..كادت تكـون بـلا صراع تقليدي يلازم نموه نـمو الحدث نفسه ... ذلك لان « الخرابة » لا تتعامل مع حدث تقليدي .. وبالتالي لم تتعامـل مـع شخصيـة تقليدية ، واخيرا لم يكن فيها تتابع سببي لوضعياتها ولا لنمو اي مـن مقومانهـا سواء منهـا ما يتعلق بالحدث او بالشخصية .ومـن هنا الحيرة والارتباك اللذان كانا حصيلة البعض من مشاهدتهم لمسرحية « الخرابـة » .

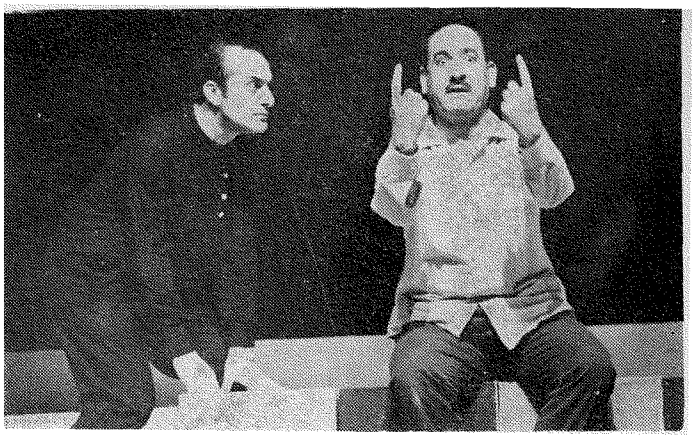

الواحد (روميو يوسف) مـع الثالث (يوسف العاني)

●

فهل تتوفـر في مسرحية « الخرابة » الوحدة التي لا غنى لاي عمل ادبي وفني عنها ؟. نعم توفرت لها مثل هذه الوحدة لكن لا في الموضوع او الحدث التقليدي بل في فكرتها ، في تصورها للعالم ، في هـذا العالم الفكري والاخلاقي الذي نتعرف عليه ونحن نقرأها او نشاهدها .

لقـد افترضت مسرحية « الخرابة » في جمهورها القدرة على اكتشاف الروابط الموضوعية التي تربط « الاول » بكل من الحاج نجم البكال وبالمثل عبدالله وبشخصية بروتس التي مثلها ، وفي الجوالذي ساد او اعقب ذلك التمثيل وبالسقا والمعلم والسائق والمـلا وغيرهم وغيرهم وذلك في عوالمهم الفكرية والذهنية والخلقية .. في موقفهم من هذا العالم .. لقـد كانوا ظلا واحدا بالفعل كما صورتهم المسرحية.

وكذلك الحال قل عن « الثاني » والاصول التي يعتبر امتدادا لها وعن «الثالث» وامتداداته ... و « الواحدة » وامتداداتها الى عشتروت عبر المحامية ـ الكاوبويز الامريكية ـ و « الواحد » وامتداداته مع عملاء الشر فهـو مجرد دميـة في هذه السلسلة الطويلة التي تنتظم وفي قوى الشر والعدوان وعـن طريقهم يتم امرار كـل المخططات وتبييت كل المؤامرات .

ومن اجل ان نواكب الثلاثة « الاول والثاني والثالث » ونتفاعـل معهم علينـا ان ننتقل الى اللامكان واللازمان .. الى عالم الحقيقـة المجردة التي يمثلهـا هؤلاء الثلاثة . شخصيات بلا ذوات ، بلا صفات مميزة . ملابسهم واحدة ، تفكيرهم واحد ، بلا حتى اسماء .. رمـوز تتحرك وتتكلم .. اي من هؤلاء « الثلاثة » اكثر مـن واحد وكلهـم ، مجتمعين ، يكونون واحدا في تمثيله للحقيقة .. واحدا اليوم وامس في الحاضر والماضي القريب والبعيد .. وللتغلب على الصعوبات التي تفرضهـا طبيعـة مثل هذا التناول رأينـا المؤلف يوفق بين التجريـد الذهني كاسلوب في رسم الشخصيات ـ الافكار ، وبين الالتزام بمبدأ نمذجـة الشخصيات وذلك في المحافظة على اظهار خصائصها الذاتيـة وارتباطاتهـا بالواقع الموضوعي دون ان يسمح لذلك بالتأثير على خط المسرحيـة العام على الاغلب .

لقـد كان الاول والثاني والثالث انماطا .. افكارا مجردة، رموزا تتحرك وهم على خشبة المسرح ، ولكن بمجرد ان يعودوا الى اصولهم التي هم امتدادات لهـا نتعرف عندئذ على شخصيات معينة لهـا خصائصها الذاتيـة وتعيش واقعـا اجتماعيا محددا . فالاول ـ فكرة مجردة ، هائمة معلقـة كالرقم الذي اتخذته اسما لهـا والطيبة والصدق والحقيقة التي يعبر عنهـا ويسعى لها ويستميت بالدفاع عنها .. غير ان جذوره وارتباطاته تعود به الى الحاج نجم البكال .. ابن ثورة العشرين .. شخصيـة حية ذات خصائص ذاتية محددة .

والثاني كذلك فكرة مجردة .. حقيقة من حقائق هذا الكون .. غير انه عندمـا نبعث فيه شخصيـة لعيبي وزوجته سكينه .. نـرى امامنـا فلاحا عراقيا : بلغته وهمومه وملابسه وكفاحيته ـ في مقارعته لباذل الاقطاع وصموده كالطود امام بطشه وجبروته . اما الثالـث فقد استحال الى الفكرة ـ الرمز بمجرد ان دخل المسرح ولـما تزل اصداء الاطفال الذين لاحقوه تتردد في اسماعنا .. وعندما نبعث شخصية غنية نبعث فيه ايضـا شخصية حساني الفقير المسحوق ولكنه الطيب .

وغنيـة هي الاخرى شخصية محددة وحيانية قبل ان تدخل المسرح فتتحول الى فكرة ، الى حقيقة من حقائق هذا الكون ، وتأخذ تسلسلها الرابع بين الاخرين ـ الحقائق ولم تعد غنيـة بعينها او غنية بذاتها .. بل جزءا من كل و« اكثر من واحد » في نفس الوقت .

والرؤيـا التي تقدمها لنـا مسرحية « الخرابة » عن العالم تتلخص في ان الحياة كانت ومـا تزال حصيلة الصراع الابدي بيـن قـوتيـن متعارضتين متناقضتين : واحدة تصنع الشر وكل المظالم والاخرى تكون غرضـا لهذا الشر وهذه المظالم ولكنهـا تعمل دائبة على درئه والتخلص منه محاولة عبر ذلك اشاعـة الخير والعدل والمحبة والسلام .

تبدأ المسرحيـة بالفكرة ، بالرمز وتعـود بنا الى الحياة عن طريق بعثها ، استحضارها حاضرا وماضيا . وبهـذا المعنـى كـانت مسرحية « الخرابة » امينة على نفسهـا محافظة على وحدتهـا ومنطقهـا فالاول كفكرة وكرمز تجسيـد لاكثر من شهيـد من شهداء الحريـة في العالم: انه مع الخير ضد الشر ، مع الكادحين ضد جلاديهم ، مع السلم ضـد الحرب ، مع الصدق ضد الزيف . وهكذا كانت كل الشخصيات التي يعتبر الثاني في امتداداتهـا : لعيبي وبوشكيـن وبابلونيرودا وكوران والرصافي وغيرهـم .

من بين الامور التي يتعلل بها المستأؤون من مسرحية « الخرابة » ان اي مشهد من المشاهد « الاستحضارية » اي استحضار الحيـاة الماضية لاحدى الشخصيات الثلاثة ـ الرموز يمكـن ان يستعاض عنـه باي مشهد اخـر وذلك لافتقار هذه المشاهد الى رابطـة سببية تجعل على حد زعمهم من تتابعها امرا منطقيـا او حتى حتميا . وهذا الاعتراض وارد ومردود في آن واحد . فالاعتراض وارد لانه من الناحية العملية يمكننا فعلا ان نستعيض عـن اي لوحـة باخرى .. ان نضع اللوحة التي تمثل لعيبي مكـان تلـك التي تمثل الحاج نجم البكال والعكس . ان نجعل « الاول » امتدادا الى لعيبي لا الى الحاج نجم البكال والعكس نجعـل الثانـي امتدادا الى الحاج نجم البكال بدلا من لعيبي او اي من الشعراء. بل يمكن ان نذهب الى ابعـد من ذلك فنجعل كـلا من الاول والثانـي والثالث والرابع امتدادت لشخصيات او ذوات لـم تأت المسرحيـة على ذكر لها ، ونستغني عن تلـك اللوحات التي تقدمها لنـا في شكلها الحالي لكـن مع شرط واحـد هو ان نحافظ على العلاقـة والرابطة الذهنيـة والفكريـة والاخلاقية التي جعلت من كل من « الاربعة » امتدادات لهذه الشخصيـات بالذات .

ولنضرب على ذلك امثلة من مسرحية « الخرابة »: يمكن ان نضع الاول مكـان الثاني والثاني مكان الثالث والثالث مكان الاول دون ان تختل المسرحيـة ودون ان يؤثر ذلك على سيرها او فكرتهـا بشرط ان يكـون الاول امتدادا للعيبي لا للسركال والثاني امتدادا للحاج نجـم البكال وليس لاحد القادة الانجليز .

وامتدادا لبروتس لا ليوليوس قيصر . هذا هو الشرط الـذي لا غنى لنـا عن مراعاته والا لم نبق امامنـا مسرحيـة ، وبمراعاتـه فقط يمكن ان نحافظ على الخط الفاصل دائما بين هاتين القوتين المتعارضتين المتناقضتين في العالم والا اختلطت علينـا الامور وهذا ما ترفض ان تقع فيه المسرحيـة وما كـان لهـا ان تقع فيه . وقياسا على ذلك يمكن ان نقول الشيء نفسه عن الخط الآخر ـ خط « الواحد » و«الواحدة».

فالواحد لا يمكن ان يكون الا امتدادا لاحد القادة الانجليز فيتقمص شخصيته ويغير من هيئته وحركاته ما ينسجم والدور الجديد الذي هو امتداد له . اما « الواحدة » فهي امتداد للمحامية الاميركية الكاوبويز . والمحامية هذه حفيدة امينة لعشتروت . فكما ان عشتروت استغلت مفاتن جسدها وعهدها لاستدراج ضحاياها وايقاعهم في افخاخها تستغل امريكا هي الاخرى كل عهدها الحضاري لاستدراج العملاء الذين تستخدمهم في فرض سيطرتها وتأمين اطماعها الجشعة.

المحامية : (موجهة حديثها الى الاربعة) : خطأ كل رأيكم خطأ. تتساقون وره اراء غريبة .. هدامة .. وتعوفون النعيم .. النعيم اللي اكدر اوفر لكمياه .. السعادة اللي تعيشون بيها دائما .. نرف.. مرح .. ونسه .. تنعموا بالحياة ، ولا تباوعون لا يمنة ولا يسرة .باوعوا على انفسكم بس ..اتركوا التفكير بالآخرين ..الاخرين رعاع.. كان لازم البشرية تتخلص منهم حتى نرتاح .. ويصبح العالم ، عالمنا احنه .. شوفوا لعاباتي شوفوهم شلون سعداء .

الدمى : (يضحكون ويرقصون)

المحامية : صيروا مثلهم . ايدوني وتعالوا أخلي الفي يغطيكم.. والحرير يغركم . تعالوا .. تعالوا .

ارتموا في احضان عالمي السعيد .. شتكولون ؟

الاربعة : الماريخ .. يا ايتها السعادة المزيفة هو الذي يرد .

ويرد التاريخ فعلا .. ويخرج علينا جلجامش من اعماق التاريخ ومعه انكيدو ثم عشتروت ينقلون الينا حكمة التاريخ الخالدة .. واذا بها هي هي .

عشتروت : جلجامش .. تعال يا جلجامش وكن عريسي وحبيبي
وهبني ثمرتك امتع بها ..
كن زوجي وأكون زوجك ..
سأعد لك مركبة من حجر اللازورد والذهب
عجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز
واذا دخلت بيتنا فستقبل قدميك العتبة والدكة
ستنحني لك الملوك والحكام والامراء
وسيقدمون لك الاتاوة من نتاج الجبل والسهل

غير ان جلجامش لم ينخدع .. انهارت امام صموده ووعيه كل مغريات عشتروت .

جلجامش : اي خير سأناله لو تزوجتك
انت
ما انت الا الموقد الذي تخمد ناره في البرد
انت قصر يتحطم في داخله الابطال
انت قير يلوث من يحمله ، وقربه بلل حاملها
... ...
اي من عشاقك من بقيت على حبه ابدا ؟
... ...
لقد احببت طير الشقراق المرقش
ولكنك ضربته بعصاك وكسرت جناحه
... ...
واحببت الاسد الكامل القوة
ولكنك حفرت للايقاع به ـ سبع حفر
واحببت الحصان المجلى في البراز والسباق
ولكنك سلطت عليه السوط والهماز والسير
... ... الخ

وتلتفت الى «اشولنو»

عشتروت : تعال اليّ يا حبيبي «أشولنو» ودعنا نذق متعة رجولتك.
مد يدك والمس مفاتن جسدي .

اشولنو : ماذا تبغين مني ...؟
الم تخبز امي فتأكل منها .. حتى آكل طعام اللعنة والعار ؟

وهنا تنهار عشتروت . فتستنجد بأبيها ليعينها على جلجامش واشولنو رمز الوعي والارادة الخيرة والصمود . ان قول جلجامش الحقيقة تعتبره عشتروت اهانة ومسبة واعتداء فتنطلق التهديدات من بين شفتيها كالحمم :

عشتروت : ابي ان جلجامش قد عزرني واهانني
لقد سبني وعيرني بهناني وشروري
فاذا لم تخلق لي الثور السماوي فلأحطمن باب العالم الاسفل ،
وافتحه على مصراعيه واجعل الموتى يقومون فيأكلون الاحياء .

وفي نفس الوقت الذي تنسحب فيه عشتروت وهي تردد : «يصبح الاموات اكثر من الاحياء» ، تدخل المحامية التي تجسد لنا اخر ما وصلت اليه اخلاقية الامبريالية الامريكية مرددة نفس العبارة.. وبهذه الصورة تجسد لنا مسرحية «الخرابة» العلاقة الروحية بين صانعي الظلام اليوم وصانعيه في امس القريب والبعيد وكشفت عن انتمائهم الى عالم واحد واخلاقية واحدة وسلوك واحد .

وعندما تصل بنا محاكمة التاريخ لسعادة «امريكا» المزيفة الى عرض مأساة الانسان في كل من فيتنام وفلسطين وعندما تتعاقب امام المشاهدين مواكب الفدائيين والفيتكونك يكون حماس الجمهور قد بلغ ذرى جديدة تماما على المسرح العراقي لم يبق معه سوى كنس صناع الظلام مع عملائهم الى مزبلة التاريخ .

فليس غريبا ان يرفع البعض عقيرتهم مذكرين بحرم الفن المقدس وضرورة الارتفاع به عن مستوى المخاطبة المباشرة على حد زعمهم وردنا عليهم نأخذه من المسرحية نفسها ونهمس في آذانهم «الفن فن .. بس الفن للناس» وانسوا رجاء صراخ صاحبكم «الواحد» وهو يقول : «يا يابه .. هم راح يحودوني للسياسة» !

ايها السادة : لقد جاءت دعوتكم متأخرة . سلوا سلفكم الصالح. الم يجعل من الفن سلاحا لتهديم قلاع الاقطاع . هل التفت سلفكم الصالح جدا الى صراخ الاقطاعيين الداعي الى الاخذ بنظرية الفن للفن فلماذا اذا تنكرون على جماهير الشعب الكادح وطلائعها الثورية ايمانها بان الفن يكتسب قيمته الوحيدة من هذا السلاح الذي يضعه تحت تصرف الجماهير الكادحة المسحوقة تستخدمه في صراعها ضد مضطهديها .. ضد قتلتها ومصاصي دمائها ؟ سلاحا بيد الفيتناميين ضد فلول الغزو الامريكي وعملائهم سلاحا بيد الفدائيين ضد الصهيونيين اشد عملاء امريكا شراسة وخطرا في الوقت الحاضر .

لقد وفرت لنا المسرحية ونحن نشاهدها متعة بالغة وأثارت فينا حماسا نبيلا لقضية الشعوب وحقدا مقدسا على اعدائها .. فان تدّعوا انها كانت عاجزة عن ان تثير فيكم الشيء نفسه فدونكم الافيون .. اغرقوا فيه حواسكم وانسوا عالمكم فهذا عين ما يريده منكم الاستعمار واعداء البشرية .

وتحية الى الاستاذ المؤلف المسرحي يوسف العاني .. والى فرقة المسرح الفني الحديث بما جادوا به علينا من فن وابداع واخلاص واثارة حية .. نحن نتطلع اليهم بالمزيد منها .. والى لقاء قريب كما نرجو . ومواسم حافلة بالخصب والنجاح والتقدم .

بغداد — جميل النكريتي

اكاديمية الفنون بجامعة بغداد